

شعراؤنا المؤرخون

كيف ترتب دوايدهم وقرؤوها

للاستاذ محمود عزت عرفة

—>>><<<—

قد يستسيغ قارئ الأدب منا أن يطالع شعر ابن أبي ربيعة مثلاً في غير ما ترتب ولا تبويب — كما هو الشأن في ديوانه المطبوع — فلا يفرق بين أوائل شعره وأواخره ؛ ولا يتدرج في المطالعة من شعر صباه وشبابه ، إلى شعر رجولته وإكتهاله ، ثم إلى شعره وهو يدب هوناً إلى الثمانين ...

قد نستسيغ ذلك لأن ابن أبي ربيعة وأمثاله من الشعراء العاطفيين لا يصدرون في أقوالهم إلا عن بواعث نفسية وموحيات خاصة ، لا ترتبط عند القارئ ، ولا عند الشاعر في أكثر الأحيان ، بزمان محدد أو مكان معلوم .

من أساسه ونبجته من جذوره ، فنوحد بين سبيل التعليم العام أولاً ، فلا تكون هناك مدارس أولية وأخرى ابتدائية تؤدي هذه وتلك إلى غيرها بنظام الحلقات المتداخلة في التعليم الذي يدرج عليه نظامنا الواهن السقيم ، وأن تتوحد فرصة هذا التعليم العام المشترك لجميع المصريين ، فلا يستطيعه الواجدون دون الفاقدين ، لا أبناء الحضرة دون أبناء الريف ، ولا الملونون دون النصاري كما هو الشأن في بعض معاهدنا التسمية بسمة القرون الوسطى إلى اليوم

أما التعليم العالي وما فيه من تخصص واستعداد مهني فيجب أن يكون في كليات جامعة واحدة ، لا في معاهد مستقلة برأسها ، والمتخرجون في هذه الكليات يجب أن يكونوا في نظر الدولة سواء ، فلا ينظر رجال البوايس في شيء من الحسد إلى رجال الجيش ، ولا يطلب المهندسون المساواة بالقضاة ، والدرسون المساواة بأولئك وهؤلاء ، ونحن في هذه الشكايات التي تملأ أعمدة الصحف ، وتبرأ النفوس من الحقد والجشع ، ولا نسمع أن طبيباً أهان وكيل نيابة ، أو أن طلبة الأزهر غاسكوا مع طلبة دار العلوم

عبد الحميد برونسي

عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

ولكن الشأن يختلف في ذلك كثيراً مع شعرائنا الاجتماعيين من أمثال المتنبي والنواصي والبحتري وأبي تمام والشريف ومهيار والسري ومررد ؛ أولئك الذين سجلوا في شعرهم صوراً كاملة من أحداث عصورهم ، وجروا في حلبة التاريخ أشواطاً تختلف طولاً وقصراً باختلاف سني أعمارهم . فارتبط شعرهم بحوادث تاريخية مشهورة ، محدود زمانها ومكانها ؛ ونجملت من أجل ذلك أهمية الترتيب والتبويب في مطالعة إنتاجهم ، ترتيباً وتبويباً ليس منهما في شيء مراعاة أبجدية القوافي ، ولا الاكتفاء بملاحظة أغراض الشعر المختلفة ، كما هو الشأن في معظم الدواوين المطبوعة اليوم ، وفي أصولها المخطوطة من قديم .

ولنضرب هنا المثل بشاعر كالبحتري ؛ فهو قد ولد في أوائل عهد الأمن ، وتوفي — عام ٢٨٤ هـ — في خلافة المعتضد . وبذا يكون قد عاصر عشرة من خلفاء بني العباس اتصل بستة منهم اتصالاً وثيقاً ، هم على ترتيب عهودهم : المتوكل والنتصر والستين والمعتز واليهدي والمعتضد ؛ وله في كل منهم مدائح أو أهاج^(١) تكشف عن مدى اتصاله بالحياة السياسية على عهده وانغماسه في تيار الحوادث الجارف خلال هذه الحقبة الطويلة الهامة من حكم العباسيين . وإذا نحن نظرنا إلى هؤلاء الأعلام الستة كنجوم لوامع نيرات في أفق ديوانه تجد لنا أهم إنجازاته ، كان لنا أن نتخذ من سائر الأعلام المنبثة فيه نجوماً أو كواكب أقل التمازج غلاً بها الفجوات الفسيحة فيما بين ذلك ؛ فنخرج من شعر البحتري بصورة تاريخية مشرقة المعالم واضحة التمايز ، لحقتها حقائق التاريخ وسداها الفن الرفيع والأدب الممجى ... ذلك أننا نجد إلى جانب ما قاله في أولئك الخلفاء قصائد ومقطعات أخرى تبلغ المئات عدداً من مدائح وأهاج ومعاتبات ومرات ومداعبات ، ومن سائر ما يدور بين المتعاصرين — كلها تتعلّق بشخصيات تاريخية هامة من الوزراء والقواد والولاة والسراة والأدباء والأعيان وغيرهم ؛ وأكثرها يسجل معالم واضحة دقيقة لأسر خطيرة الذكر على هذا العهد من أمثال آل طاهر وآل

(١) راجع مقالينا : « شاعر ومنجم » و « النابغون في أوطانهم »

حديث عن البحتري ، في السديين ٥٤٥ و ٦١٠ من مجلة الرسالة ،

بتاريخي ١٢-١٢-١٩١٣ و ١٢-٣-١٩١٥ م

المدير وآل حميد ، وآل مخلد وسهل ووهب وخافان ونيبخت وبسطام ... وغير هؤلاء .

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن أبي تمام الذي مدح المأمون والمتصم والوائق من الخلفاء - وتوفي قبل الأخير بعامين - ثم التمت في ثنايا ديوانه الحافل بالأعلام ، أسماء آل دواد ووهب وسهل ورجاء وحيمد ومزيد الشيباني وطوق التغلبي وبوسف الطائي ... الخ بل يمكن أن نقول ذلك عن كل شاعر اجتماعي من أمثال من أشرنا إليهم ، فترتيب شعر هؤلاء وفق أبجدية القوافي أو أغراض الشعر كما هو متبع إلى اليوم ، تشويه لمرض إنتاجهم ليس بعده تشويه ، وإعراض عن ناحية هامة كان ينبغي أن تنجبه إليها العناية منذ بعيد ، تلك هي الناحية الاجتماعية التاريخية من هذه التفاسير الخالصة .

وإن عذر القدماء لوضح في لزوم هذه الطريقة الفجة في جمع الدواوين ، إذ كان الأمر في ذلك موكولا إلى جماعة الرواة منهم والحفاظين ، والناية منه حفظ هذه الكنوز من الضياع ، ثم مساعدة التأديبين والأدباء على اقتناء مجموعات شعرية وافية تسهل مراجعتها واستخراج البيت منها أو الأبيات بأيسر المجهود ، لتذوق ما فيها من شاعرية ، أو لدراستها دراسة لغوية لا تخرج عن دائرة النحو والبلاغة والعروض وما إليها . أما هذه الناحية التاريخية التي نشير إليها فلم تكن مما يخطر للقوم على بال ؛ وإنما هي غرض يتجدد ويزداد شعورنا بالحاجة إليه كلما تطاول الزمن على هذه القصائد فاكتملت صفة السجلات التاريخية الوثيقة .

وإن تحقيق هذا الغرض ليقضي أن ترتب كل ديوان ترتيباً تاريخياً تراعى فيه تسلسل الحوادث المختلفة التي يسجلها الشاعر ، وتاريخ حياة كل من الأشخاص الذين يتحدث عنهم^(١) . وليس بظن في صدق هذا التاريخ الأدبي أو ينتقص من قدره ما قد يتجه إلى الشعراء عامة من الريبة في صحة أحكامهم لأنهم كؤرخين معاصرين للحوادث التي يوردونها ، يمتازون من الخبرة وسعة

(١) قليل جداً من دواوين الشعر العربي ما رتب على هذا الوضع ، ولعل ديوان المتنبي يعد صورة مبسطة من ذلك وفي كتيب ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام للدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنبي « رتب ديوانه بنفسه وقرأه الناس عليه ، وأمل شرحاً لبعض أبياته ، وناقشه فيه من أخذوا عنه » انظر ص ١٧ من ذكرى أبي الطيب .

الاطلاع بما لا يتأتى لغيرهم ممن سجلوا هذه الحوادث بعد انطواء أزمانها . وأي وصف لحياة الأفيشين للمتصم أصدق عبارة مما سجله أبو تمام في قصيدته : الحق أبلج والسيوف عوار ؟ .. بل أي تسجيل لحوادث فتح عمورية أبلغ أثراً في النفس مما نقرؤه في بانيته : السيف أصدق أبناء من الكتب ؟

والأمثلة على ذلك كثيرة نؤي إلى بعضها فيما يلي :

- ١ - رحلت عن الربيع المحيل فعودي : لأبي الغنصية في عقد الرشيد المهد لأبنائه الثلاثة في ذي الحجة عام ١٨٦ هـ
- ٢ - شغلان من عدل ومن تفنيد : للبحترى في عقد التوكل البيعة لأبنائه المنتصر والمعتز والمؤيد في ذي الحجة عام ٢٣٥ هـ
- ٣ - قل للسحاب إذا حدثه الثمأل : للبحترى في وفود الروم على المتوكل ، ومقاداته الأسرى (في شوال عام ٢٤١ هـ)
- ٤ - زاد عن مقلتي لذيد المنام : لابن الرومي في إيقاع صاحب الزنج بأهل البصرة أيام المعتضد (شوال ٢٥٧ هـ)
- ٥ - عواذل ذات الخال في حواسد : للمتنبي في حروب خرسنة على عهد سيف الدولة عام ٣٤٠ هـ .
- ٦ - فتوحك ردت بهجة الملك سرمداً : للسري الرفاء في النرض السابق .
- ٧ - فتح أعز به الإسلام صاحبه : للسري الرفاء في هزيمة الهمستق وبناء قلعة الحدث عام ٣٤٣ هـ .
- ٨ - على قدر أهل العزم تأتي العزائم : للمتنبي في النرض السابق

وينبغي بعد ألا يفوتنا النص على أن هؤلاء الشعراء كانوا من حزب الخلافة في أكثر أمرهم ، فلهجتهم هي الرسمية ، ووجهة نظرهم هي الوجهة العامة القالبة . وكتب التاريخ التي ننحني أمام صدقها لا ينظر أكثرها إلى الحوادث السائرة إلا من هذه الزاوية . فهؤلاء الشعراء في تسجيلهم لحوادث التاريخ العامة لم يكونوا إلا لساناً ينطق برأي الهيئة الحاكمة ، ولا يخالف كثيراً - إن لم يمثل تماماً - رأى الهيئة المحكومة من عامة الشعوب الإسلامية . هذا ، ولم تكن الأطلاع التي تتلجج في نفوسهم ، والتي يحتمل معها الشك في صدق أحكامهم ، بالأطلاع الجريئة بعيدة النور التي قد تشوه بها الحقائق ويختل معها ميزان الأحكام . فهم مع

المؤرخون بسردها ، ثم هم يتخبطون في عجافل النيب إن تناولوا إلى ما فوق ذلك بتعميل بواعثها .

ولتجديد موقف الشعراء من المؤرخين ، وبيان مدى الاعتماد على الشعر كمصدر من مصادر التاريخ نورد ما ذكره الدكتور طه حسين بك في كتابه « مع المتنبي » ، وهو يتحدث عن وصف الشاعر لحروب سيف الدولة ، قال ^(١) : « قد يقال إن المتنبي أغرق وأسرف ، وعظم من أمر هذه المواقع أكثر مما ينبغي ، وأضاف إليها من الخطأ أكثر مما تستحق ، وأعرض عن تصوير الهزيمة ، ولم يعن إلا بتصوير الانتصار . ولكن يجب أن نتفق ، فلم يكن المتنبي مؤرخاً ولا محققاً ، وإنما كان شاعراً ، وشاعراً ليس غير . استغفر الله ، بل كان شاعراً يشترك في الجهاد ، يذوق لذته ويشقى بآلامه . فالذين يطالبون هذا الشاعر بالتاريخ وتصوير الحق كما وقع يسرفون عليه ، ويسرفون على أنفسهم ، ويسرفون على الشعر نفسه . وأين كانت تقع حرب طروادة التي وصفت الإلياذة طوراً من أطوارها من هذه الحروب التي شهدتها المتنبي ووصفها تسعة أعوام كاملة . أفيما بين شعراء الإلياذة بأنهم لم يصفوا التاريخ كما كان ، أم يحمده من هؤلاء الشعراء أنهم صوروا نفوس الجماعات والأفراد التي اشتركت في هذه الحرب أبدع تصوير وأروع ؟ » . ثم يتندر صاحب كتاب مع المتنبي عن تهويل الشاعر في وصف وقائع سيف الدولة فيقول : « كلا إنه لا يتجاوز الحق ، ولا يفسد التاريخ بالقياس إلى الذين لا يحسنون استنباط التاريخ من الشعر ، ولا يفرقون بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين » .

وإذا كنا قد أطلنا الحديث عن الناحية التاريخية من الشعر ، فحسبنا أن نجتزئ بالإشارة العابرة إلى ناحية أخرى تتعلق بعلم الجغرافيا . وخير من الإطناب في هذا المقام أن ننقل للقارئ فقرة موجزة من كتاب « امرئ القيس » للدكتور محمد صبرى حيث يقول ^(٢) : « قد جرى امرؤ القيس في معظم قصائده ، وتبعمه في ذلك جميع شعراء العرب من جاهليين وإسلاميين ، على سنة تحديد الأماكن وذكرها ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا هذه السنة

(١) مع المتنبي - ٢٢٣ .

(٢) الشرايح : امرؤ القيس صفحة ٣٧ .

انجذابهم في تيسار السياسة لم يكونوا من رجالها بالمعنى الفهوم ، وإنما هم أهل فن وأدب : مطلبهم العيش الرغيد وأمنيتهم الحياة السهلة الوادعة ؛ يفتنهم جمال الحق ، ويمجّبهم الانضواء تحت لوائه والقيام بنصرته . وإنهم لأقل الناس انحرافاً ، وأقلهم تبهماً لذلك تشويهاً للحقائق بزيادة فيها أو نقصان .

وكبار المؤرخين أنفسهم يتجه إليهم من النقد شيء كثير ، ويؤخذ عليهم من المآخذ ما يكفي أقله لأن يودى بقدر مؤلفاتهم التي نمتد عليها الاعتماد كله ، ونستنبط منها حقائق التاريخ - فيما نزع - جليلة ناصعة .

جاء في « نحي الإسلام » عند الحديث عن مؤرخي العصر العباسي الأول ^(١) :

« قد يكون في عمل هؤلاء المؤرخين بمض مآخذ كتلون التاريخ ببعض العقائد أحياناً ، وكبتائهم التاريخ حول الخلفاء لا حول الشعوب ، وإهمالهم كثيراً من وصف النواحي الاجتماعية وغلبة النزعة الدينية فيما يمرضون له من أحداث ، وضمف النقد وإيجازه وسداجته ... الخ » .

ونقول إنه لن يكون نصيب الشعراء من أمثال هذه المآخذ أكثر من نصيب المؤرخين ، مع ما ينبغي الاعتراف به دائماً من وفرة حظ الأولين من الصراحة وصدق التعبير ، وقلة تعلق أكثرهم بالماديات تعلقاً يدفعهم إلى اعتساف سبيل التحيز أو التحيف .

على أنه ينبغي لنا أن ندرك الفرق بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين ؛ فلا نجثم الشعراء طريقاً غير طريقهم ... وإنهم لأصحاب الإغراق والإسراف والبالغة والتهويل ... تلك المالات المونقة التي تزين جبين الشعر ، والتي لا يصعب على المتفرس أن يتعرف إلى وجه الحقيقة من ورائها . ثم هم بمد ذلك بتفردون بالإبداع في تصوير نفوس الأفراد والجماعات والتمقق في تحليل الشخصيات التاريخية التي يعاصرونها إلى الحد الذي لا يتأتى لكثير من المؤرخين . ورب أبيات قصيرة يصف بها الشاعر حالة من حالات خليفة أو أمير في مجلس سمر أو ساجدة قنص أو محفل مناظرة أو مقام مشاورة - تكشف لنا من خلجات هذه النفسية التاريخية ونوازعها ما يملل الكثير من الأحداث الهامة التي يكنفى

(١) نحي الإسلام للإستاذ أحمد بك أمين ج ٢ - ٢٠٩ .